وحدة تحليل السياسات*

اختلاف خطاب "الممانعة" لدى النظام السوري تجاه العدوان الإسرائيلي على غزة

* وحدة تحليل السياسات في المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات.

شنّت إسرائيل عدوانًا على قطاع غزة في ٨ تموز/ يوليو ٢٠١٤، اختلف عما سبقه من حيث إنه جاء في مرحلة ما بعد الثورات العربية ونجاح الثورة المضادة في مصر التي أوصلت مرشح الجيش وقائد الانقلاب العسكري المشير عبد الفتاح السيسي إلى منصب رئاسة الجمهورية. اختلفت المواقف العربية والإقليمية من العدوان الإسرائيلي على غزة؛ إذ قدّمت قطر وتركيا الدعم السياسي والإعلامي، وربما المالي أيضًا، لحركات المقاومة الفلسطينية. أما دول "الاعتدال" العربية التقليدية فتراوحت مواقفها بين أخذ مسافة "متساوية" بين طرفي الصراع، وميلها للوقوف ضد المقاومة الفلسطينية عبر تحميلها مسؤولية سقوط ضحايا أبرياء على يد الإسرائيليين، وذلك لأنها رفضت المبادرة المصرية بصيغتها الأولية الداعية الى الاستسلام غير المشروط أمام المطالب الإسرائيلية.

وكان الغائب الأكبر عن هذه المعادلة هو المحور الذي اصطلح على تسميته بمحور "الممانعة" ويضم إيران وسورية وحزب الله. ومن بين هؤلاء، يستدعي موقف النظام السوري أهمية خاصة في نقاش فكرة دعم المقاومة الفلسطينية لتباينه بحسب الظروف السياسية التي تمر بها المنطقة العربية، وارتباط الموقف من دعم المقاومة عمومًا بمصالح النظام وسياساته خاصة في ظل ظروف الثورة عليه.

حماس في محور المقاومة!

كان مطلب وقف دعم حركتي المقاومة الفلسطينيتين حماس والجهاد الإسلامي وإخراجهما من الأراضي السورية باعتبارهما "جماعتين إرهابيتين"، على قائمة الشروط التي وضعها وزير الخارجية الأميركي كولن باول أمام النظام السوري خلال زيارته دمشق في ٣ أيار/ مايو ٢٠٠٣. لكنّ الضغوط الأميركية لم تفلح في إخراج القيادات الفلسطينية المقيمة في دمشق؛ إذ تعثّر المشروع الأميركي في العراق، وصمدت حركات المقاومة في فلسطين ولبنان في مواجهة محاولات إسرائيل المتكررة سحقها. وتشكّل إثر ذلك ما أصبح يعرف بمحور "الممانعة" أو "المقاومة"، وضمّ إلى جانب سورية، إيران وحركتي حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله اللبناني.

وعندما شنت إسرائيل عدوانها على قطاع غزة في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨، قادت سورية نشاطًا دبلوماسيًا مشتركًا مع دولة قطر لعقد قمة عربية طارئة للعمل على وقف العدوان. إلا أنّ دول "الاعتدال العربي" حينها نجحت في منع اكتمال النصاب القانوني لعقد القمة، ما دفع سورية وقطر إلى عقد قمة سميت "قمة غزة" في الدوحة في ١٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩، وجمعت دولًا عربية وغير عربية اتفقت على الوقوف ضد العدوان الإسرائيلي ودعم صمود الشعب الفلسطيني. أما على الصعيد الميداني، فقد قامت سورية بإسناد الجهد الحربي لحركة المقاومة الإسلامية "حماس" عبر إبلاغها عن توقيت الطلعات الجوية الإسرائيلية التي كانت ترصدها الرادارات السورية[1]، كما أطلقت الحكومة حملة تبرعات شعبية لدعم أهالي غزة.

> وعندما شنت إسرائيل عدوانها على قطاع غزة في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨، قادت سورية نشاطًا دبلوماسيًا مشتركًا مع دولة قطر لعقد قمة عربية طارئة للعمل على وقف العدوان

حماس خارج محور المقاومة!

مع انطلاق الثورة السورية في ١٥ آذار/ مارس ٢٠١١، حاولت قيادة "حماس" بما لها من رصيد شعبي ورسمي داخل سورية المساهمة في احتواء الأزمة عبر وساطة قامت بها بين النظام والقطاعات الشعبية المنتفضة ضده والقوى السياسية المعارضة له. وكان جوهر الوساطة يقوم على أن توقف الحكومة السورية استخدام العنف، وتبدأ خطوات إصلاحية جدية تفضي إلى وقف الاحتجاجات. إلا أنّ السلطات السورية رفضت أي دور لحماس في تهدئة الأوضاع. ومع تطور الحركة الاحتجاجية من مظاهرات سلمية إلى العمل العسكري نتيجة استخدام العنف ضد المحتجين في المدن والقرى السورية، طالب النظام الحركة الوقوف إلى جانبه من دون قيد أو شرط، وكذلك طلبت إيران عبر موفدها قاسم سليماني. وعندما رفضت حماس ذلك، ازدادت حدة التوتر بين النظام السوري وحركة حماس. وبالنتيجة، بدأت قيادات من حماس بمغادرة سورية اعتبارًا من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، أغلقت السلطات السورية مكاتب حماس في دمشق بشكل نهائي. أما حركة الجهاد الإسلامي فظلت تحتفظ بعلاقاتها مع السلطات السورية، إذ لم تتخذ موقفًا صريحًا ضد النظام وإن كانت دعت إلى

١ مقابلة شخصية مع عضو في المكتب السياسي لحركة حماس، أجراها معه باحثون من المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة في ٢٣ تموز/ يوليو ٢٠١٤.

الحوار بين الأطراف السورية المختلفة وتقديم "تنازلات مؤلمة لحقن الدماء والحفاظ على وحدة سورية"[٢]. ومع ذلك، غادر أمينها العام إلى القاهرة في أغسطس/ آب ٢٠١٢ نظرًا للأوضاع الأمنية المتردية في دمشق، وكان أثناء الحرب الأخيرة على غزة مقيمًا في بيروت كما يبدو.

أثّر موقف النظام السوري تجاه حركة حماس، والتي رفضت تأييده في قمع شعبه، في مجمل مواقفه من دعم المقاومة؛ فعندما قامت إسرائيل بعدوانها على قطاع غزة في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، صدر عن الحكومة السورية طوال أيام العدوان بيانٌ مقتضبٌ في اليوم الأول فحسب، شجب العدوان وندّد باغتيال القيادي في حركة حماس أحمد الجعبري، واصفًا إياه بالشهيد[٣]. وفي الوقت نفسه، قامت الصحف المحلية والإعلام الرسمي بتغطية تطورات العدوان بشكل يومي. أما في القنوات غير الرسمية ووسائل التواصل الاجتماعي، فقد ظهرت آراء وكتابات لمؤيدي النظام تنتقد مواقف حركة حماس من الأزمة السورية وتشكّك في قدرتها على الصمود في وجه العدوان الإسرائيلي.

> فعندما قامت إسرائيل بعدوانها على قطاع غزة في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، صدر عن الحكومة السورية طوال أيام العدوان بيانٌ مقتضبٌ في اليوم الأول فحسب، شجب العدوان وندّد باغتيال القيادي في حركة حماس أحمد الجعبري

لم يتغير الموقف السوري كثيرًا في عدوان إسرائيل الأخير على قطاع غزة؛ إذ صدرت بيانات إدانة من القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس الشعب في ١٢ تموز/ يوليو ٢٠١٤، ومن الحكومة أيضًا في السادس عشر من الشهر نفسه. وصفت جميع البيانات العدوان بـ "حرب إبادة تستوجب محاكمة دولية للاحتلال وداعميه"، لكنها حاولت استثماره سياسيًا لخدمة سياسات النظام ومواقفه في الأزمة الداخلية؛ إذ اعتبر البيان الصادر عن الحكومة أنّ العدوان الإسرائيلي على غزة يتكامل في أهدافه مع ما تسعى لتحقيقه "الحرب الإرهابية على سورية" من استهداف لمحور المقاومة ومحاولة فرض شروط الاستسلام عليه[٤].

> أما رئيس النظام بشار الأسد، فقد اعتبر في خطاب القسم في ١٧ تموز/ يوليو ٢٠١٤ أنّ حكومته سوف تبقى ملتزمة مبادئ القضية الفلسطينية، لكنه ميّز بين المقاومة الفلسطينية وحركة حماس معتبرًا الأخيرة حركة تدّعي المقاومة

أما رئيس النظام بشار الأسد، فقد اعتبر في خطاب القسم في ١٧ تموز/ يوليو ٢٠١٤ أنّ حكومته سوف تبقى ملتزمة مبادئ القضية الفلسطينية، لكنه ميّز بين المقاومة الفلسطينية وحركة حماس معتبرًا الأخيرة حركة تدّعي المقاومة، إذ جاء في خطابه "هذا يتطلب منا أنّ نميّز تمامًا بين الشعب الفلسطيني المقاوم الذي علينا الوقوف إلى جانبه وبين بعض ناكري الجميل منه ... بين المقاومين الحقيقيين الذين علينا دعمهم والهواة الذين يلبسون قناع المقاومة وفق مصالحهم لتحسين صورتهم أو تثبيت سلطتهم، وإلا سنكون بشكل واعٍ أو غير واعٍ نخدم الأهداف الإسرائيلية"[٥]. وبناء عليه، ظلت القنوات الإعلامية الرسمية السورية وشبه الرسمية تلتزم تسمية الفصائل الفلسطينية المقاتلة في غزة بالمقاومة، لكنها تتجنب ذكر اسم حركة المقاومة الإسلامية "حماس" كفصيل مقاوم. بل إنها ذهبت إلى حد القول إنّ المقاومة الحقيقية تأتي من فصائل المقاومة المحسوبة على

٢ مقابلة الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي رمضان عبد الله شلح في برنامج لقاء اليوم على قناة **الجزيرة**، ١٥ آذار/ مارس ٢٠١٤، انظر:
http://goo.gl/2CNedb

٣ "استشهاد ٩ فلسطينيين وإصابة العشرات بعدوان إسرائيلي مفتوح على غزة.. والمقاومة ترد باستهداف المستوطنات.. وتل أبيب.. سورية تدين .. أميركا تبرر .. كي مون ينحاز.. بريطانيا تحابي"، جريدة **الثورة**، ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، انظر:
http://thawra.alwehda.gov.sy/_archive.asp?FileName=351922864201211150137 54

٤ "مجلس الشعب والقيادة القطرية لحزب البعث واتحاد علماء بلاد الشام: العدوان الإسرائيلي على غزة حرب إبادة تستوجب محاكمة دولية للاحتلال وداعميه"، **سانا**، ١٢ تموز/ يوليو ٢٠١٤، انظر:
http://goo.gl/we8o6L؛
وانظر كذلك: "إقرار مشروع قانون يسمح بالتنازل عن العضوية في الجمعيات السكنية دون اللجوء للقضاء"، جريدة **تشرين**، ١٦ تموز/ يوليو ٢٠١٤، في:
http://tishreen.news.sy/tishreen/public/read/320343

٥ "الرئيس الأسد يؤدي القسم الدستوري: السوريون أسقطوا الإرهابيين وأسيادهم.. سنعيد إعمار سورية وسنستمر بضرب الإرهاب وإجراء المصالحات"، **سانا**، ١٧ تموز/ يوليو ٢٠١٤، انظر:
http://goo.gl/jMUHMW

النظام السوري، مثل كتائب "جهاد جبريل" التابعة للجبهة الشعبية – القيادة العامة، والتي يذهب الإعلام الرسمي السوري إلى أنه وقع على عاتقها العبء الأكبر من مقاومة العدوان الإسرائيلي وإلحاق أكبر الضرر بجيش الاحتلال. والمعروف أنّ هذه الجبهة تقف إلى جانب النظام السوري تمامًا، وتقاتل إلى جانبه في العديد من الجبهات ضد قوات المعارضة في ريف العاصمة دمشق، أما وجودها في غزة فيكاد لا يذكر.

في تعريف المقاومة!

ظلت علاقة النظام السوري بحركات المقاومة محددةً على الدوام بمدى توافقها مع إستراتيجية بقائه واستمراره وخدمة سياساته الخارجية والداخلية على حد سواء؛ فعندما كانت العلاقة مع حماس تخدم إستراتيجية النظام الإقليمية وتزيد من قوة الضغط لديه عند التفاوض مع واشنطن، كان النظام السوري يوفّر لها وسائل الدعم والقوة. وعندما رفضت حماس أن تقف إلى جانبه في قمع الشعب السوري، فقد أصبحت الحركة "ناكرةً للجميل ومدعيةً للمقاومة"! وكان هذا موقف النظام سابقًا من حركات المقاومة الفلسطينية كافة، ولا سيما حركة فتح.

وفضلًا عن ذلك، يصح القول بأنّ النظام السوري، وبخاصة في عهد الرئيس بشار الأسد، كان أبعد ما يكون في تركيبته ونمط حياة أفراده عن فكر المقاومة ومبادئها، ولكن تدهور علاقاته مع الغرب خاصة بعد احتلال العراق واغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، اضطره إلى ترسيخ تحالفاته مع حركات الإسلام السياسي التي تتبنى خطاب المقاومة. هذا المنطق يوضحه انهيار تقاطعات النظام السوري المصلحية مع الحركات المناوئة لسياسات الولايات المتحدة في فلسطين والعراق؛ إذ اتهمت السلطات السورية حركة حماس بأنها ليست حركة مقاومة مع أول حالة صدام في المبادئ والقيم الوطنية والإنسانية، على الرغم من أنها هي التي تقاتل إسرائيل فعليًا على أرض الواقع إلى جانب الفصائل الفلسطينية الأخرى. كما بنى النظام في دمشق تحالفًا وثيقًا مع حكومة رئيس الوزراء العراقي المنتهية ولايته نوري المالكي بعد الثورة السورية، مع أنّ هذه الحكومة جاءت محمولةً على دبابات الاحتلال الأميركي وتكرست سلطتها من خلاله.

إنّ "المقاومة" في عرف النظام السوري تقتصر على كل من يقف معه، حتى لو كان مؤيدًا لإسرائيل. أما من يقف ضده فهو خائن، ومدعٍ للمقاومة، حتى لو كان يحارب إسرائيل. (ومؤخرًا ظهرت بوادر نسبة هذه التسمية بحسب التصنيف الطائفي؛ فالصحف الإيرانية مثلًا تسمّي حركة الحوثيين في اليمن "المقاومة اليمنية". بهذا، بلغت صراحة الربط بين المقاومة والانتماء الطائفي، أو الانتماء لسياسة الدولة الخارجية، حد العبث).

> "المقاومة" في عرف النظام السوري تقتصر على كل من يقف معه، حتى لو كان مؤيدًا لإسرائيل. أما من يقف ضده فهو خائن، ومدعٍ للمقاومة، حتى لو كان يحارب إسرائيل

وعمومًا، يمكن القول إنّ الموقف السوري من العدوان الإسرائيلي على غزة لا يختلف كثيرًا عن الموقف المصري الذي يتحكّم بسياساته الخارجية وعلاقاته بالحركات والقوى الإقليمية هاجسُ بقائه في مواجهة قوى سياسية داخلية تنازعه الشرعية. لكنّ الموقف السوري يعبّر عن مواقفه بطريقة مختلفة؛ تعتمد على التمسك بلفظ المقاومة كاستمرار للنظام على مستوى الخطاب، وكي يستمد مشروعيةً أيضًا من قضايا وطنية عادلة.